الشعر

في

العصر العباسي

تطور الشعر ونهض نهوضا ملحوظا ؛ إذ عاش الشعراء أزهى عصورهم ، وكان من عوامل نهضة الشعر في العصر العباسي:

١-النهضة الثقافية و الفكرية. و تطور الحركة العلمية:-

فقد أسهمَ التطور الفكري و الثقافي في اهتمام الشعراء بمعانٍ جديدة و أبدعت قرائحهم كثيرا من الصور و التشبيهات التي أخذت من الحوارات العلمية و الثقافية، وشاعت في شعرهم المعاني العقلية.

٢- التطور الحضاري الذي أسهمَ في نهضة فن الوصف:-

فقد شاعَ في هذا العصر وصف القصور و الموائد و المآكل والمشارب... كما أثر التطور الحضاري في لغة الشعر فاستخدموا الألفاظ الرقيقة. وابتعدوا عن الغريب و المهجور.

٣-النهضة الاقتصادية و الحياة المُترفة التي عاشها الخُلفاء:-

والتي ترتب عليها ازدهار فن المديح بسبب كثرة العطايا والمنح التي كانت تقدم للشعراء ، كما نما نتيجة لهذا الترف شعر الغزل والمجون و نما كذلك شعر الزهد كاتجاه مضاد للمجون و التهتك.

٤- الامتزاج مع الأمم الأخرى و امتداد علاقات التأثير و التأثر:-

و أسهم هذا في نمو اتجاهات شعرية جديدة تحاول التمرد على البناء التقليدي، كما أدّى إلى ظهور المفردات الفارسية في الشعر العباسي نتيجة للامتزاج القوي فيما بين العنصرين العربي و لفارسي .

٥- تطور الحركة النقدية في العصر العباسي:-

فصارَ الشعراء محاسبون على النواحي الجمالية و الهفوات الفنية مِن قبل النقاد ، فلم يعد النقد فطريًا انطباعيًا كما كان في العصر الجاهلي. فقد صارَ النقد منهجيًا له أصوله و قواعده.

مظاهر تطور الشعر في العصر العباسي الأول:

في الأغراض و الفنون:

استمرت أغراض الشعر في العصر العباسي امتدادا للأغراض الشعرية في العصور السابقة، ولحقها تطور صاحبه ظهور موضوعات جديدة ، ومن الموضوعات التقليدية التي لحقها التطور في العصر العباسي كالمدح و الهجاء و الغزل و الرثاء.

المدح:

تطور غرض المدح بشكل ملحوظ بظهور مضامين جديدة إلى جانب مضامينه المعروفة سابقًا، فإلى جانب المدح بصفات الكرم والمروءة و الشجاعة... برز الإلحاح في هذا العصر على المعاني الإسلامية خاصةً في مدح الخلفاء و الوزراء على نحو لم يُعهد مِنْ قبل ، فالخليفة في نظر الشعراء إمام المسلمين و حامي حمى الإسلام.

يقول سلم الخاسر في مدح يحيى البرمكي:

بقـــــاء الـــــدين و الـــــدنيا

جميعًـــا إذا بقـــي الخليفـــة والـــوزير

يَغـــارُ علـــى حِمَـــى الإســـلام يحيـــى

إذا مـــا ضـــيع الحـــزم الغيـــور

و قد بالغ الشعراء في وصف مكانة ممدوحيهم الدينية، يقول أبو نواس في مدح هارون الرشيد:

لقـــد اتقيـــتَ الله حـــقَ تُقاتـــه

وجَهَـــدْتَ نفســـك فـــوق جُهـــدِ المُتقـــي

وَأخفْـــتَ أهـــلَ الشِـــرك حتـــى أنّـــه

لَتخَافـــكَ النُطـــف التـــي لَـــمْ تُخلـــق

كمَا قام الشعراء بتصوير الأحداث والفتن والحروب في قصائد المدح ،حتى أصحبت قصيدة المدح وثيقة تاريخية تُصوّر فيها البطولات العربية.

و أبرز مثال على هذا قصيدة أبي تمام في فتح عمورية:

الســـيف أصـــدق انبـــاء مـــن الكتـــب

فـــي حـــده الحـــد بـــين الجـــد واللعـــب

و من نواحي التجديد في هذا الفن مدح المدن والتعصب لها والإفاضة في تعداد محاسنها، و أشهر المدن التي مُدحت الكوفة و البصرة

وبغداد باعتبارها المراكز الرئيسية للحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية.

يقول عمارة بن عقيل في مدح بغداد:

أعاينت في طول من الأرض

أوعرض كبغداد دارا إنها جنة الأرض

الهجاء:

اتسم الهجاء بالسخرية الشديدة والإيذاء المؤلم، وبرزت أنواع للهجاء منه:

- الهجاء السياسي
- والهجاء الشخصي
- هجاء المدن

فمن الهجاء الشخصي قول ابن الرومي في هجاء بخيل:

يقتر عيسى على نفسه ولـيس بباق ولا واجد

فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

وفي الهجاء الشخصي اتجه الشعراء نحو السخرية ورسم الصور الهزلية المضحكة.

ومِنْ أَلهجاء العام قول دعبل الخُزاعي في هجاء المعتصم والواثق:

خليفةٌ ماتَ لمْ يَحزنْ لهُ أحدُ

وآخرٌ قامَ لمْ يفرح بهِ أحدُ

فَمَرَّ هَذا وَمَرَّ الشُؤمُ يَتبَعُهُ

وقامَ هَذا فَقامَ الشُؤمُ وَالنَكَدُ

ويلاحظ أن الهجاء السياسي اتجه نحو التركيز على الإنحراف الديني و الزندقة للمهجوين.

ومن صور هجاء المدن، قول الشاعر:

إنما البصرة أشجارٌ ونخل وسماد

ليس في البصرة حر لا ولا فيها جواد

الرثاء:

كان للحضارة تأثيرها الملموس في فن الرثاء ، فبعدَ أن كان الشعراء العرب ينظمون في البحور الطويلة صار شعراء العصر العباسي ينظمون في البحور الخفيفة، ومن نماذج الرثاء في هذا العصر :

- مدح الخلفاء مثل :

قال أبو نواس في الخليفة محمد الأمين:

طوى الموت ما بيني وبين محمّد

وليس لما تطوي المنية ناشر

وكان منه رثاء الأبناء كمرثية ابن الرومي في ابنه محمد، وأولها:

بكاؤكمـــا يُشـــفي وإنْ كـــانَ لا يُجـــدي

فجـــودا فقـــد أودى نظيركمـــا عنـــدي

ألام لمـــا أبـــدي عليـــه مـــن الأســـى

وإن كان في القلـــب أضـــعاف مـــا أبـــدي

ومنه رثاءِ الزوجات، كما في قول محمد الزيات في زوجته التي ماتت وتركت ولداً صغيراً:

ألا مـــــن رأى الطفـــــل المفـــــارق

أمـــه بعيـــد الكـــرى عينـــاه تبتـــذرانِ

رأى كـــل أم وابنهـــا غيـــر أمـــه

يبيتـــــان تحـــــت الليـــــل ينتحبـــــانِ

وبـــات وحيـــداً فـــي الفـــراش تجنّـــه

بلابـــــل قلـــــبٍ دائـــــم الخفقـــــان

فـــلا تلحيـــاني إن بكيـــت فإنمـــا

أداوي بهـــــذا الـــــدمع ماتريـــــان

ومن جديد الرثاء في العصر العباسي:

- رثاء المغنين

ومن ذلك قول أحدهم في رثاء المغني إبراهيم الموصلي:

بكـــت المســـمعات حزنـــاً

عليـه وبكـاه الهـوى وصـفو الشـراب

وبكـــت آلـــة المجـــالس حتـــى

رحـــم العـــود دمعـــة المضـــراب

ومنه رثاء المدن :

كقول الشاعر في المحنة التي أصابت بغداد إثر الصراع الناشب فيما بينَ الأمين والمأمون :

يـــا بـــؤسَ بَغـــداد دار مَملَكـــة

دارَت علـــى أهلِهـــا دَوائرهـــا

أمهَلَهـــا اللّـــهُ ثُـــمَّ عاقَبَهـــا

لَمّـــا أحاطَـــت بِهـــا كَبائرهـــا

ومنـه رثـاء الشـعراء لأشـياء جديـدة كالأشـياء الشخصـية والحيوانات، **يقول ابن العلاّفِ في رثاء هرّة:**

يـــاهرَّ فارقتنـــا ولـــم تعـــدِ

وكنـــت منـــا بمنـــزلِ الولـــد

وكيـــف تنفـــك عـــن هـــوَاك

وقـــد كنـــتَ لنـــا عـــدة مـــن العـــدد

الغزل:

كان منه الغزل العفيف الذي يتناول الصفات الخلقية المعنوية للمرأة كرقة الإحساس وجمال الروح ، ورجاحة العقل ....

ومنه الغزل الحسي العابث الذي يركز عل ملامح جسد المرأة ومفاتنها الجسدية .

كما ظهرَ في الشعر العباسي الغزل بالغلمان أو الغزل بالمذكر.

الوصف:

برع شعراء العصر العباسي وهذا الغرض و نظرًا للتطور الحضاري و النمو الاقتصادي فقد اتسع مجال الوصف و تنامي، وظهر بذلك اتجاهين في الوصف:

- الاتجاه القديم الذي امتدت له يد الحضارة بالتهذيب والتطويرمثل وصف الشعراء الرحلة في الصحراء و الناقة والفرس و الليل و النجوم و وصفوا المعارك و الحروب .
- الاتجاه الحديث المبتكر الذي كان نتاج التطور الحضاري والنماء الاقتصادي و شيوع الترف و البذخ مثل وصف المظاهر الحضارية المختلفة :

القصور وما فيها من فرش وأثاث وما يحيط بها من حدائق غناء تغني فيها الطيور وتجري فيها الظباء والغزلان .

ووصف الآلات الموسيقية وما يتردد فيها من أصوات المغنين والمغنيات والألعاب والموائد والمآكل والمشارب....

و من نماذج الاتجاه القديم:

يقول ابن الفرج في وصف جسر نهر دجلة:

أيا حبذا جسراً على متن دجلة
بإتقان تأسيس وحسنٍ ورونق
جمالٌ وفخر للعراق ونزهة
وسلوة من أضناه فرط التشوق

الحكمة:

ساعدت حركة الترجمة الواسعة على نقل حكم اليونان والفرس وحكم كليلة ودمنة الهندية التي ترجمت للفارسية واستوعبها الشعراء ثم تمثلوها في شعرهم ، وضمنوها بعض أبياتهم ، يقول بشار بن برد في إحدى مدائحه:

إذا بلغَ الرأيُ المشورةَ فاستعن
برأيِ نصيحٍ أو نصيحةِ حازمِ
ولا تجعلِ الشورى عليك غضاضةً
مكانُ الخوافي نافعٌ للقوادمِ

ويقال : إنه كان في ديوان صالح بن عبد القدوس ألف مثل:

للعجم:

ولقد كانت حِكَمُ العصور الأدبية السابقة تبدو منثورة في قصيدة المديح أو الهجاء أو الرثاء أو حتى الغزل ، لتلخص تلك التجربة في حكمة أو اثنتين .

وتميّز شعر الحكمة العباسي بإفراد قصائد أو مقطوعات كاملة ومن ذلك قصيدة (ذات الأمثال) لأبي العتاهية التي جمع فيها كثيرًا من الأمثال البليغة ذكر صاحب الأغاني أنها تبلغ نحو أربعة آلاف مَثل ومن الشعراء الذين أفردوا للحكمة قصائد كاملة **صالح بن عبد القدوس** :

المـــرء يجمـــع و الزمـــان يفـــرق

ويظـــل يرقـــع والخطـــوب تمـــزق

ولأن يعـــادي عـــاقلا خيـــر لـــه

مـــن أن يكـــون لـــه صـــديق أحمـــق

فارغـــب بنفســـك أن تصـــادق أحمقـــا

إن الصـــديق علـــي الصـــديق مصـــدق

وزن الكـــلام إذا نطقـــت فإنمـــا

يبـــدي عيـــوب ذوي العقـــول المنطـــق

الزهد والتصوف:

الزهد اتجاه سلوكي يهدف للابتعاد عن الدنيا والالتزام بالعبادات، أما التصوف فهو نزعة تتخذ من المجاهدة والرياضة الروحية باباً للوصولِ إلى الباطن وإعلاء جانب الروح .

عرف هذا الغرض من عصر الصحابة، ثمّ العصر الأموي الذي برز فيه الكثير من القصاص والوعاظ الذين في أشعارهم بوادر للزهد والتصوف .

وفي العصر العباسي أصبح فناً ينظم بذاته، ليواجه تيار الزندقة والإنحرافْ والمجون .

ومن النساءِ المشهوراتِ بالعبادة والصوم والاستغراق في الذات العلية رابعة العدوية **وقد نادت بالحب الإلهي ومن شعرها:**

أحبك حبين حب الهوى
وحبا لأنك أهلاً لذاكا
فأما الذي هو حبّ الهوى
فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له
فكشفك للحجبِ حتى أراكا

أمّا شعر الزهد الإسلامي المتضمن لتعاليم الدين دون غلو فيتجلى في شعر أبي العتاهية. ومن الأبيات المنسوبة لأبي نواس في الزهد:

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرةً
فلقد علمت بأن عفوك أعظمُ
أدعوكَ ربِّ كما أمرتَ تضرعاً
فإذا رددت يدي فمن ذا يرحمْ
إنْ كانَ لا يرجوك إلا مُحسنٌ
فبمن يلوذ و يستجير المجرم
مالي إليكَ وسيلةً إلا الرجا
و جميل ظني، ثمّ إني مسلم

النظم التعليمي:

و هو فنٌ أدبي جديد ابتدعه الشعراء العباسيون، بهدف تسهيل حفظ العلوم، واستظهار المعارف، لاسيما بعد الإقبال على التعلم والرغبة الشديدة في طلب المعرفة.

وهذا اللون من الشعر يفتقر – عادة – إلى العاطفة والخيال ويخاطب العقل، ويتميز بطول النفس الشعري، وتنوع القافية.

وقد برز في هذا اللون من النظم الشاعر إبان اللاحقي، وله مزدوجة طويلة شرح فيها أحكام الصوم والزكاة، أولها:

هذا كتاب الصوم وهو جامع
لكل ما قامت به الشرائع

وقد نظم الشعراء في علم الحيوان، وتاريخ الطب، وعلم الفلك وغيرها.

مظاهر تطور الشعر في الأفكار و المعاني:

اتسعت الثقافة في العصر العباسي، فظهر أثر ذلك على الحياة الفكرية فتميزت الصورة الشعرية بالجدة والطرافة، **وأبيات بشار بن برد مثال على التجديد والإبداع:**

لم يطل ليلي ولكن لم أنم
ونفى عني الكرى طيف ألم
ختم الحب لها في عنقي
موضع الخاتم من أهل الذمم

ففي البيت الثاني، تشبيه نادر، ولغة الأبيات سهلة وأسلوبها مألوف. كما اتسع خيال الشاعر العباسي فحلق في فضاء رحب مما صنعته يد الحضارة، وما صاحبها من ألوان الترف والنعيم الذي أسس لحياة جديدة، إلى جانب الطبيعة الخلابة.

وتبرز مظاهر التَطور في :

١- الألفاظ و الأساليب:

اتسمت بالمتانته والقوة ومجاراة المحدثين في تجديدهم وتسربت كثير من الألفاظ والأفكار إلى الساحة الأدبية نتيجة

لامتزاج العرب ومصاهرتهم للأمم الأخرى ، يدل على ذلك ما في ثنايا شعر العباسيين من ألفاظ كثيرة مقترضة من لغات أخرى أصبحت مألوفة في الشعر والنثر مثل : الفالوذج، والديباج .. وهي ألفاظ فارسية .

كما استخدم الشعراء تراكيب وألفاظا أعجمية، فضلاً عن المصطلحات العلمية والفقهية والفلسفية.

- في الأوزان والقوافي:

نظم الشعراء العباسيون قريضهم بالأوزان الخليلية ، ومالوا إلى الأوزان القصيرة و المجزوءة، التي تستدعي الرشاقة، والعذوبة، وتلائم حياة القصور والحانات والخمائل ، وتكون أكثر استجابة للغناء وطواعية للموسيقى ، **يقول مطيع ابن إياس:**

ويلي ممّن جفاني وحبه قد برَاني

ومن المقتضب يقول أبو نواس :

حامل الهـوى تعـب يسـتخفه الطـرب

إنْ بكى يحـقُ لـه لـيسَ مـا بـه لعـبُ

تضـحكين لاهيـة والمحـب ينتحـبُ

كلما انقضى سببٌ منـكِ عـاد لـي سـببُ

وتصرف بعض الشعراء في الأوزان، واستحدثوا أوزاناً أخرى تنسجم مع روح العصر.

٢- المولدون و الشعر:

هم من أصولٍ غير عربية و تحدثوا العربية وقد مال الشعراء المولدون إلى العناية الشديدة بالصنعة اللفظية والمعنوية، وكلفوا بإيراد المعاني الغريبة والأخيلة الطريفة، ويمثلهم خير تمثيل بشار بن برد وأبو نواس ومسلم بن الوليد وأبو تمام، فأكثروا من البديع في شعرهم وخرجوا على عمود الشعر المعروف عند العرب.